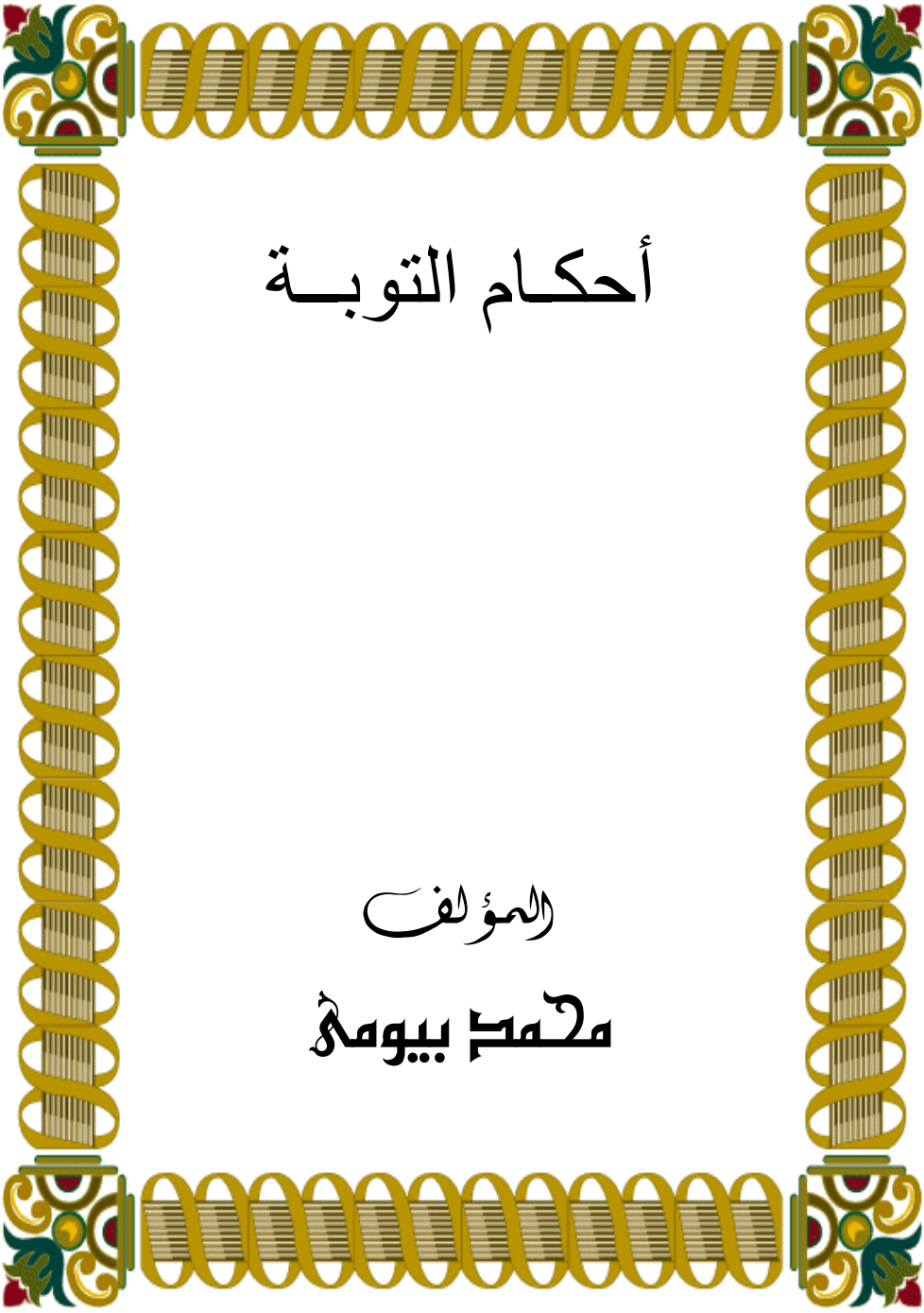

أحكـام التوبــة

المؤلف

محمد بيومي

مكتبة الإيمان
المنصورة
ت 2257882

حقيقة التوبة

قال ابن القيم: كثير من الناس إنما يفسر التوبــة بالعزم على أن لا يعاود الذنب ، وبالإقلاع عنه فى حال ، وبالندم عليه فى الماضى ، وإن كان فى حق آدمى فلابد من أمر رابع ، وهو التحلل منه .

وهذا الذى ذكروه بعص مسمى التوبــة بل شروطها ، وإلا فالتوبة فى كلام الله ورسوله كما تتضمن ذلك - تتضمن العزم على فعل المأمور والتزامه ، لا يكون بمجرد الإقلاع والعزم والندم

تائباً ، حتى يوجد منه العزم الجازم على فعل المأمور ، والإتيان به ، هذه حقيقة التوبــة ، وهى اسم لمجموع الأمرين ، لكنها إذا قرنت بفعل المأمور كانت عبارة عما ذكروه ، فإذا أفردت تضمنت الأمرين.

فإن حقيقة التوبة: الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يجب ، وترك ما يكره ، فهى رجوع من مكروه إلى محوب ، فالرجوع إلى محبوب جزء مسماها ، والرجوع من المكروه الجزء الآخر . ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور ، وترك المحظور بها ، فقال:

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

[النور: 31]

فكل تائب مفلح ، ولا يكون مفلحاً إلا من فعل ما أمر الله به ، وترك ما نهى عنه ، وقال تعالى:

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

[الحجرات: 11]

وتارك المأمور ظالم ، كما أن فاعل المحظور ظالم ، وزوال اسم الظلم عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين ، فالناس قسمان: تائب وظالم ، ليس إلا ، فالتائبون هم:

﴿الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ﴾. [التوبة: 112]

فحفظ حدود الله جزء من التوبــة ، و التوبــة هى مجموع هذه الأمور ، وإنما سمى تائباً لرجوعه إلى أمر الله من نـهيه ، وإلى طاعته من معصيته ، كما تقدم .

فإن التوبــة هى حقيقة دين الإسلام والدين كله داخل فى مسمى التوبــة ، وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، وإنما يحب الله من فعل ما أمر به ،

وترك ما نهى عنه .

فإذاً التوبــة هى الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً ، إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً ، ويدخل فى مسماها الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ، وتتناول جميع المقامات ، ولهذا كانت غاية كل مؤمن ، وبداية الأمر وخاتمته ، وهى الغاية التى وجد لأجلها الخلق ، والأمر والتوحيد جزء منها ، بل هو جزؤها الأعظم الذى عليه بناؤها .

وأكثر الناس لا يعرفون قدر التوبــة ولا حقيقتها ، فضلاً عن القيام بها علماً وعملاً وحالاً ، ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه .

ولولا أن التوبــة اسم جامع لشرائع الإسلام ، وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ، ذلك الفرح العظيم ، فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل التوبــة وآثارها . (تهذيب مدارج الساكين ص1520151)

****

توبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله

وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبله ، وتوبة منه بعدها ، فتوبته بين توبتين من ربه ، سابقة ولاحقة ، فإنه تاب عليه أولاً إذناً وتوفيقاً ، وإلهاماً ، فتاب العبد عليه ثانياً ، قبولاً وإنابة ، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿117﴾ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ

الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

.

[التوبة: 117 - 118]

فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم ، وأنها هى التى جعلتهم تائبين: فكانت سبباً مقتضياً لتوبتهم ، فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم ، والحكم ينتفى لانتفاء علته .

ونظير هذا: هدايته لعبده قبل الاهتداء، فيهتدى بهدايته ، فتوجب له تلك الهداية هداية أخرى يثيبه الله بها هداية على هدايته ، فإن من ثواب الهدى: الهدى بعده، كما أن من عقوبة الضلال: الضلالة بعدها . قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ . [محمد: 17]

فهداهم أولاً فاهتدوا ، فزادهم هدى ثانياً ، وعكسه فى أهل الزيغ كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ .

[فصلت: 5]

فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم ، وهذا القدر من سر اسميه الأول والآخر فهو المعدُّ . وهو الممدُّ ومنه السبب والمسبب ، وهو الذى يعيذ من نفسه بنفسه ، كما قال أعرف الخلق به "وأعوذ بك منك" ، والعبد تواب ، والله تواب ، فتوبة العبد: رجوعه إلى سيده بعد الإباق ، وتوبة الله نوعان: إذن وتوفيق ، وقبول وإمداد . (المصدر السابق: ص156 - 157)

واعلم: - يا عبد الله - أن التوبة الخالصة النصوح تمحو كل الذنوب والسيئات ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ

سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ . [التحريم: 8]

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ .

وقال النبيﷺ : ((إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغرغر)) . (رواه أحمد والترمذى وابن ماجة بسند صحيح)

ومعنى يغرغر: أى ما لم تصل روحه إلى حد الغرغرة عند سكرات الموت .

قال ابن رجب الحنبلى: دل هذا الحديث على قبول توبة الله عز وجل لعبده مادامت روحه فى جسده لم تبلغ الحلقوم والتراقى ، وقد دل القرآن

على مثل ذلك أيضاً قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ . [النساء: 17]

وعمل السوء إذا انفرد يدخل فيه جميع السيئات صغيرها وكبيرها ، والمراد بالجهالة الإقدام على السوء وإن علم صاحبه أنه سوء ، فإن كل من عصى الله فهو جاهل ، وكل من أطاعه فهو عالم ، وبيانه من وجهين:

أحدهما: أن من كان عالماً بالله تعالى وعظمته وكبريائه وجلاله ، فإنه يهابه ويخشاه ، فلا يقع منه مع استحضار ذلك عصيانه ، كما قال بعضهم: لو تفكر الناس فى عظمة الله تعالى ما عصوه . وقال آخر: كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار بالله جهلاً .

والثانى: أن من آثر المعصية على الطاعة ، فإنما حمله على ذلك جهله ، وظنه أنها تنفعه عاجلاً باستعجال لذتها ، وإن كان عنده إيمان فهو التخلص من سوء عاقبتها بالتوبة فى آخر عمره ، وهذا جهل محض ، فإنه تعجل الإثم والخزى ، ويفوته عز التقوى وثوابها ، ولذة الطاعة ، وقد

يتمكن من التوبــة بعد ذلك ، وقد يعاجله الموت بغتة ، فهو كجائع أكل طعاماً مسموماً لدفع جوعه الحاضر ، ورجا أن يتخلص من ضرره بشرب الذرياق بعده ، وهذا لا يفعله إلا جاهل ، وقد قال تعالى فى حق الذين يؤثرون السحر:

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ . [البقرة: 102]

والمراد أنهم آثروا السحر على التقوى والإيمان لما رجوا فيه من منافع الدنيا المعجلة مع علمهم أنهم يفونهم بذلك ثواب الآخرة ، وهذا جهل

منهم لأنهم لو علموا لآثروا الإيمان والتقوى على ما عداهما ، فكانوا يحرزون أجر الآخرة ويأمنون عقابها ، ويتعجلون عز التقوى فى الدنيا ، وربما وصلوا إلى ما يأملونه فى الدنيا أو إلى خير منه وأنفع ، فإن أكثر ما يطلب بالسحر قضاء حوائج محرمة ، أو مكروهة عند الله عز وجل ، والمؤمن المتقى يعوضه الله فى الدنيا خيراً مما يطلبه الساحر ، ويؤثره مع تعجيله عز التقوى وشرفها ، وثواب الآخرة وعلو درجتها ، فتبين بهذا أن إيثار المعصية على الطاعة ، إنما يجعل عليه الجهل ، ولذلك كان كل من عصى الله جاهلاً ، وكل من أطاعه عالماً . وكفى بخشية الله علماً ، وبالاغترار

به جهلاً .

وأما التوبــة من قريب ، فالجمهور على أن المراد بها التوبــة قبل الموت ، فالعمر كله قريب ، ومن تاب قبل الموت فقد تاب من قريب ، ومن مات ولم يتب فقد بعد كل البعد كما قيل:

فهم جيرة الأحياء أما :: فدان وأما الملتقى قرارهم : فبعيد

فالحى قريب والميت بعيد من الدنيا على قربة منها ، فإن جسمه فى الأرض يبلى ، وروحه عند الله تنعم أو تعذب ، ولقاؤه لا يرجى فى الدنيا .

مقيم إلى أن يبعث الله :: لقاؤك لا يرجى وأنت خلقه : قريب

تزيد بلى فى كل يوم :: وتنسى كما تبلى وأنت

وليلة : حبيب

وهذان البيتان سمعهما داود الطائى رحمه الله من امرأة فى مقبرة تندب بهما ميتاً لها ، فوقعتا من قلبه موقعاً ، فاستيقظ بهما ، ورجع زاهداً فى الدنيا راغباً فى الآخرة ، فانقطع إلى العبادة إلى أن مات رحمه الله ، فمن تاب قبل أن يغرغر فقد تاب من قريب ، فَتُقبل توبته.

وروى عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ ، قال: قبل المرض والموت ، وهذا إشارة إلى أفضل أوقات التوبة ، وهو أن يبادر الإنسان بالتوبة فى صحته قبل نزول المرض به حتى يتمكن حينئذ من العمل الصالح ،

ولذلك قرن الله تعالى التوبــة بالعمل الصالح فى مواضع كثيرة من القرآن ، وأيضاً فالتوبة فى الصحة ورجاء الحياة تشبه الصدقة بالمال فى الصحة ورجاء البقاء . فكأن من لا يتوب إلا فى مرضه قد استفرغ صحته وقوته فى شهوات نفسه ، وهواه ، ولذة دنيا ، فإذا أيس من الدينا والحياة فيها تاب حينئذ وترك ما كان عليه ، فأين توبة هذا من توبة من يتوب من قريب ، وهو صحيح ، قوى على عمل المعاصى فيتركها خوفاً من الله عز وجل ، ورجاء لثوابه وإيثاراً لطاعته على معصيته .

دخل قوم على بشر الحافى وهو مريض فقالوا له: على ماذا عزمت ؟ فقال: عزمت أنى إذا عوفيت

تبت ، فقال له رجل منهم: فهلا تبت الساعة ، فقال: يا أخى أما علمت أن الملوك لا تقبل الأمان ممن فى رجليه القيد ، وفى رقبته الغل ، إنما يقبل الأمان ممن هو راكب الفرس ، والسيف مجرد بيديه ، فبكى القوم جميعاً .

ومعنى هذا أن التائب فى صحته بمنزلة من هو راكب على متن جواده ، وبيده سيف مشهور ، فهو يقدر على الكر والفر والقتال ، وعلى الهرب من الملك وعصيانه ، فإذا جاء على هذه الحال إلى بين يدى الملك ذليلاً له ، طالباً لأمانه، صار بذلك من خواص الملك وأحبابه ، لأنه جاءه طائعاً مختاراً له ، راغباً فى قربه وخدمته .

وأما من هو فى أسر الملك وفى رجله قيد وفى رقبته غل ، فإنه إذا طلب الأمان من الملك ، فإنما طلبه خوفاً على نفسه من الهلاك ، وقد لا يكون محباً للملك ، ولا مؤثراً لرضاه ، فهذا مثل من لا يتوب إلا فى مرضه عند موته ، والأول بمنزلة من يتوب فى صحته وقوته وشيبته ، لكن ملك الملوك أكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين ، وكل خلقه أسير فى قبضته ، لا يعجزه هارب ولا يفوته ذاهب ، ومع هذا فكل من طلب الأمان من عذابه من عباده أمّنه على أى حال كان إذا علم منه الصدق فى طلبه .

الأمان الأمان وزرى :: وذنوبى إذا عددت

ثقيل : تطول

أوبقتنى وأوثقتنى :: فترى لى إلى الخلاص ذنوبى : سبيل

وقوله عز وجل: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ .

[النساء: 18]

فسوى بين من تاب عند الموت ومن مات من غير توبة ، والمراد بالتوبة عند الموت ، التوبة عند انكشاف الغطاء ومعاينة المحتضر أمور الآخرة ، ومشاهدة الملائكة ، فإن الإيمان والتوبة

وسائر الأعمال إنما تنفع بالغيب ، فإذا كشف الغطاء وصار الغيب شهادة لم ينفع الإيمان ولا التوبــة فى تلك الحال .

وقوله ﷺ فى حديث ابن عمر: "ما لم يغرغر" ، يعنى إذا لم تبلغ روحه عند خروجها منه إلى حلقه ، فشبه ترددها فى حلق المحتضر بما يتغرغر به الإنسان من الماء وغيره ، ويرردده فى حلقه ، وإذا ذلك الإشارة فى القرآن بقوله عز وجل: ﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿83﴾ وَأَنتُمْ حِينَـئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿84﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾ . [الواقعة: 83 - 85]

وبقوله: عز وجل: ﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِيَ﴾ . [القيامة: 26]

وروى أبى الدنيا بإسناده عن الحسن قال: أشد ما يكون الموت على العبد إذا بلغت الروح التراقى قال: فعند ذلك يضطرب ويعلو نفسه ، ثم بكى الحسن رحمه الله تعالى:

:: فى ظل شاهقة
عش ما بدا لك : القصور
سالما :: ـت لدى الرواح وفى
يسعى عليك بما : البكور
اشتهيـ :: فى ضيق حشرجة
فإذا النفوس تقعقعت : الصدور
فهناك تعلم موقنـــاً :: مـا كنت إلاَّ فى
: غرور

واعلم: أن الإنسان ما دام يأمل الحياة فإنه لا يقطع أمله من الدنيا ، وقد لا تسمح نفسه بالإقلاع عن لذاتها وشهواتها من المعاصى وغيرها ، ويرجيه الشيطان بالتوبة فى آخر عمره . فإذا تيقن الموت وأيس من الحياة أفاق من سكرته بشهوات الدنيا فندم حينئذ على تفريطه ندامة يكاد يقتل نفسه ، وطلب الرجعة إلى الدنيا ليتوب ويعمل صالحاً ، فلا يجاب إلى شئ من ذلك ، فيجتمع عليه سكرة الموت مع حسرة الفوت ، وقد حذر الله فى كتابه عباده من ذلك ليستعدوا للموت قبل نزوله بالتوبة والعمل الصالح، قال الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ

الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴿54﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴿55﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ . [الزمر: 54 - 56]

سمع بعض المحتضرين عند احتضاره يلطم على وجهه ويقول: ﴿يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ .

وقال آخر عند احتضاره: سخرت بى الدنيا حتى ذهبت أيامى .

وقال آخر عند موته: لا تغرنكم الحياة الدنيا كما غرتنى .

وقال الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿99﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾.

[المؤمنون: 99 - 100]

وقال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿10﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

[المنافقون:10- 11]

وقال الله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ . [سبأ: 54]

وفسره طائفة من السلف منهم عمر بن عبد العزيز رحمه الله: بأنهم طلبوا التوبة حين حيل بينهم وبينها . قال الحسن: اتق الله يا ابن آدم لا يجتمع عليك خصلتان ، سكرة الموت وحسرة الفوت . وقال ابن السماك: احذر السكرة والحسرة أن يفجأك الموت وأنت على الغرة ، فلا يصف واصف قدر ما تلقى ، ولا قدر ما ترى [1] .

"لطائف المعارف" (461 - 467) باختصار .

شروط التوبة

شروط التوبــة ثلاثة: هـى:ـ

1 -أن يندم العبد على ما سلف منه فى الماضى .

2- أن يقلع عن الذنب فى الحال .

3- أن يعزم على أن لا يعاوده فى المستقبل .

والثلاثة تجتمع فى الوقت الذى فيه التوبــة ، فإن فى ذلك الوقت يندم ويقلع ويعزم .

فحينئذ يرجع إلى العبودية التى خُلق لها ، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبــة .

وهذه الشروط الثلاثة تكون بين العبد وربه ، وهناك شرط آخر يكون بين التائب وبين الناس ، وهو رد المظالم إلى أهلها ، إن كان هناك مظالم .

ويخرج التائب من المظالم التى تتعلق بحق الآدمى ، إما بأدائها إليه ، أو باستحلاله من هذه المظلمة ، لقول النبى ﷺ : ((من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض فليتحلله اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات)) . (رواه البخارى)

وإن كانت هذه المظلمة قدح أو غيبة أو قذف لآدمى ، فهل يشترط فى التائب أن يعلم الشخص بذلك ليتخلص منه ؟

والجواب على هذا: أنه إذا غلب على ظن التائب أن المظلوم سيسامحه ويعفو عنه فليعلمه ويتحلل منه .

وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أنه لا يشترط على التائب إعلام من نال من عرضه ، وقذفه ، واغتيابه ، بل يكفى توبته بينه وبين الله ، وأن يذكر المغتاب والمقذوف فى مواضع غيبته وقذفه ، بضد ما ذكره به من الغيبة ، فيبدل غيبته بمدحه والثناء عليه ، وذكر محاسنه ، وقذفه بذكر عفته وإحصائه ، ويستغفر له بقدر ما اغتاب .

قال ابن القيم ـ رحمه الله: واحتج أصحاب هذه المقالة بأن إعلامه مفسدة محضة ، لا تضمن مصلحة ، فإنه لا يزيده إلا أذى ، وحنقاً ، وغماً ، وقد كان مستريحاً قبل سماعه ، فإذا سمعه ربما لم يصبر على حمله ، وأورثه ضرراً فى نفسه أو بدنه ... وما كان هكذا فإن الشارع لا يبيحه فضلاً عن أن يوجبه ويأمر به .

قالوا: وربما كان إعلامه به سبباً للعداوة والحرب بينه وبين القائل ، فلا يصفوا له أبداً ويورثه علمه به عداوة وبغضاء مولدة لشر أكبر من شر الغيبة والقذف ، وهذا ضد مقصود الشرع من تأليف القلوب والتراحم والتعاطف ، والتحابب .

قالوا: والفرق بين ذلك وبين الحقوق المالية وجنايات الأبدان من وجهين:

الوجه الأول: أنه قد ينتفع بها إذا رجعت إليه ، فلا يجوز إخفاؤه عنه ، فإنه محض حقه ، فيجب عليه أداؤه إليه ، بخلاف الغيبة والقذف ، فإنه ليس هناك شيء ينفعه ويؤديه إليه إلا إضراره ، وتهييجه فقط ، فقياس أحدهما على الآخر من أفسد القياس .

الوجه الثاني: أنه إذا أعلمه بها لم تؤذه ولم تهج منه غضباً ولا عداوة ، بل ربما سره ذلك وفرح به ، بخلاف إعلامه بما مزق به عرضه طول عمره ليلاً ونهاراً من أنواع القذف ، والغيبة ، والهجو ، فاعتبار أحدهما بالآخر اعتبار فاسد ،

وهذا هو الصحيح فى القولين كما رأيت ، والله أعلم . (انظر مدارج السالكين: 288/1)

****

علامات التوبة الصحيحة

التوبة المقبولة الصحيحة لها علامات:

منها: أن يكون بعد التوبــة خيراً مما كان قبلها .

ومنها: أنه لا يزال الخوف مصاحباً له لا يأمن مكر الله طرفة عين ، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه:

﴿أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ . [فصلت: 30]

ومنها: انخلاع قلبه وتقطعه ندماً وخوفاً ، وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها ، ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه ، وتقطعه ، فمن لم يتقطع قلبه فى الدنيا على ما فرط حسرة وخوفاً ، تقطع فى الآخرة إذا حفت الحقائق ، وعاين ثواب المطيعين ، وعاقب العاصين ، فلا بد من تقطع القلب إما فى الدنيا وإما فى الآخرة .

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضاً:

كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شىء ، ولا تكون لغير المذنب ، ولا تحصل بجوع ، ولا رياضة ، ولا حب مجرد ، وإنما هى أمر وراء هذا كله ، تكسر القلب بين يدى الرب كسرة تامة ، قد أحاكت به من جميع جهاته ، وألقته بين يدى ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً .

فالله ما أحلى قوله فى هذه الحال: "أسألك بعزك وذلى ، إلا رحمتنى ، أسألك بقوتك وضعفى ، وبغناك عنى وفقرى إليك ، هذه ناصيتى الكاذبة الخاطئة بين يديك ، عبيدك سواى كثير وليس لى سيد سواك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ،

أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، سؤال من خضعت لك رقبته ، ورغم لك أنفه ، وفاضت لك عيناه ، وذل لك قلبه".

يا من ألوذ به فيما أؤ :: ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً :: ولا يهيضون عظماً أذ
كاسره :: جابره

فهذا وأمثاله من آثار التوبــة المقبولة ، فمن لم يجد ذلك فى قلبه ، فليتهم توبته، وليرجع إلى تصحيحها ، فما أصعب التوبــة الصحيحة بالحقيقة ، وما أسهلها باللسان والدعوى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

****

فرح الله بتوبة عبده

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «لله أفرح بتوبة عبده - حين يتوب إليه - من أحدكم ، كان على راحلة له بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال: من شدة الفرح - اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح» .

(متفق عليه)

قال ابن القيم: وفى الحديث من قواعد العلم: أن اللفظ الذى يجرى على لسان العبد خطأ من فرح شديد ، أو غيظ شديد ، ونحوه لا يؤاخذ به ، ولهذا لم يكن كافراً بقوله: "أنت عبدى وأنا ربك".

ومعلوم أن تأثير الغضب فى عدم القصد يصل إلى هذه الحال ، أو أعظم منها ، فلا ينبغى مؤاخذة الغضبان بما صدر منه حال شدة غضبه من نحو الكلام ، ولا يقع طلاق بذلك ، ولا ردته، وقد نص الإمام أحمد على تفسير الإغلاق فى قوله ﷺ : "لا طلاق فى إغلاق" . (رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة بسند

حسن)

وفسره به غير واحد من الأئمة وفسروه بالإكراه والجنون .

قال شيخنا "يعنى ابن تيمية": "وهو يعم هذا كله ، وهو من الغلق ، لانغلاق مصدر المتكلم عليه ، فكأن لم ينفتح قلبه لمعنى ما قاله" . (مدارج السالكين:166/1 - 167)

وسبب فرح الله بتوبة عبده: هو أن الله عز وجل قد خص الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله وشرفه ، وخلقه لنفسه، وخلق كل شىء له ، وسخر له ما فى سماواته وأرضه وما بينهما ،

حتى ملائكته الذين هم أهل قربه تخدمهم له ، وجعلهم له فى منامه ، ويقظته ، وظعنه وإقامته ، وأنزل عليه كتبه وأرسل إليه كتبــه ، وجعله خيرة خلقه واتخذه محبوباً له .

وهذا المحبوب له عدو بغيض إلى الله وهو إبليس اللعين ، وهذا اللعين يريد أن يبعد الإنسان عن خالقه ورازقه ، ولا يترك سبيلاً يؤدى إلى هذا البعد إلا وسلكه ، وقد يزين هذه السبل للإنسان حتى يوقعه فيها .

فإذا انحرف الإنسان عن الصراط المستقيم واستجاب لنداءات إبليس اللعين فقد استجلب على نفسه سخط وغضب أرحم الراحمين ، رب العالمين .

فإذا عاد الحبيب إلى سيده ، وجد فى الهرب إليه حتى وصل إلى بابه ، فوضع خده على عتبة بابه ، وتوسد ثرى أعتابه، متذللاً متضرعاً ، خاشعاً باكياً آسفاً يتملق سيده ، ويسترحمه ويستعطفه ، ويعتذر إليه حتى وصل إلى بابه ، فوضع خده على عتبة بابه ، وتوسد ثرى أعتابه، متذللاً متضرعاً ، خاشعاً ، باكياً ، آسفاً ، يتملق سيده ، ويسترحمه ، ويستعطفه ، ويعتذر إليه ، قد

ألقى بيده إليه ، واستسلم له وأعطاه قياده ، وألقى إليه زمامه ، فعلم سيده ما فى قلبه ، فعاد مكان الغضب عليه رضا عنه ، ومكان الشدة عليه رحمة به ، وأبدله بالعقوبة عفواً وبالمنع عطاء ، وبالمؤاخذة حلماً ، فاستدعى بالتوبة والرجوع من سيده ما هو أهله ، وما هو موجب أسمائه الحسنى وصفاته العليا ، فكيف يكون فرح سيده به؟ وقد عاد إليه حبيبه ووليه ، طوعاً واختياراً وراجع ما يحبه سيده من طريق الغضب والانتقام والعقوبة. (مدارج السالكين: 1/169)

تنبيه مهم: ينبغى علينا أن نؤمن بصفة الفرح بالنسبة لله تعالى على الحقيقة ، وهذه الصفة من الصفات الفعلية الخبرية، فنؤمن بها كما وردت ،

ونقول إن الله يفرح فرحاً يليق بجلاله ، ولا نقول: إن الله يفرح كما يفرح البشر ، لأن الله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ . [الشورى: 11]

والفرق بين صفة الخالق وصفة المخلوق، كالفرق بين الخالق والمخلوق ، وكل ما خطر فى بالك فالله بخلاف ذلك .

وأيضاً نثبت لله هذه الصفة من غير تكييف ، فلا نسأل ونقول: كيف يفرح الله ، فإن معنى الفرح معلوم ، ولكن الكيف مجهول ، والبحث عن الكيفية من أنواع البدع المحدثة ، ونوع من التكلف ، وقد نهينا عن التكلف .

ونؤمن أيضاً بهذه الصفة من غير تأويل ، فلا نقول كما قال أهل التأويل: إن الفرح معناه قبول التوبــة والثواب الجزيل ، والعطاء الكريم ؛ لأن ما قالوه إنما هو لازم صفة الفرح وأثرها ، وليس هو حقيقة الفرح .

والذى أدى بأهل التأويل إلى تأويل الصفة بلازمها هو أنهم شبهوا الله بخلقه، وقاسوا الخالق على المخلوق .. فقالوا: إن الفرح خفة وانفعال ، وتغير من حال إلى حال ، وكل ذلك لا يليق بالله تعالى .

وأهل التأويل وقعوا أولاً فى التشبيه ، ثم أرادوا أن يتخلصوا مما تورطوا فيه من التشبيه بارتكاب بدعة التأويل ، والقول على الله بغير علم .

واعلم: أخى المسلم أن صفة الفرح بالنسبة لله تعالى تتضمن لطف الله بعباده ورحمته لهم ، حيث يوفق من يشاء من عباده ليتوبوا ، فإذا تابوا تقبل توبتهم ، وفرح بها فرحاً شديداً ولطيفاً فى وقت واحد ، إذ يُرد إليه عباده الشاردين من طاعته لئلا يضيعوا ، وهو الذى لا تضره معصيتهم ولا تنفعه طاعتهم .

****

أحكام أخرى تتعلق بالتوبة

أولاً: ماذا يفعل التائب إذا تعذر عليه أداء الحق الذى فرَّط فيه ؟

والجواب: عن هذا السؤال ، أقول: إن الحقوق منها ما يتعلق بالله ، ومنها ما يتعلق بالعباد ، فإذا كان الحق يتعلق بالله تعالى كمن ترك الصلاة مثلاً لمدة من الزمن بعد البلوغ ثم تاب إلى الله تعالى وأقام الصلاة .

فقد اختلف أهل العلم فيمن هذا شأنه، فذهب بعضهم إلى أنه يقضى بعد التوبة الفرائض التى تركها ، واستدل هذا الفريق بقول النبى ﷺ : ((من

نام عن الصلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها» . (متفق عليه)

وقالت طائفة أخرى من أهل العلم ، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية: إن توبته باستئناف العمل فى المستقبل ، ولا يجب عليه تدارك ما مضى ، ولكنه يكثر من التوبــة والاستغفار ، والندم على تفريطه فى حق الله تعالى .

قالوا: لأن العبادات ينبغى أن تؤدى على الوجه الذى أمر الله به من حيث الصفة والوقت ، والعبادات جُعل لها ظرف من الزمان لا تصح إلا فيه ، كالعبادات التى جعل لها ظرف من المكان، فنقل العبادة إلى أزمنة غير أزمنتها التى جعلت أوقاتاً لها

شرعاً إلى غيرها ، كنقلها عن أمكنتها التى جعلت لها شرعاً وغيرها .

قالوا: فنقل الصلاة المحدودة الوقت عن زمنها إلى زمن آخر كنقل الوقوف بعرفة عن زمنه إلى مزدلفة ، ونقل أشهر الحج عن زمنها إلى زمن آخر .

وحقوق الله المؤقتة لا يقبلها الله فى غير أوقتها ، فكما لا تُقبل قبل دخول أوقاتها لا تُقبل بعد خروج أوقاتها .

وأجاب هذا الفريق على دليل الفريق الأول ، وهو قول النبى ﷺ : «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها» .

قالوا: إن صاحب الشرع شرط فى فعل الصلاة بعد فوتها أن يكون الترك عن نوم أو نسيان ، ولا يقاس المفرط العاصى المستحق للعقوبة على من عذره الله ! ولم ينسب إلى تفريط ولا معصية ، كما ثبت عنه ﷺ فى الصحيح: «ليس فى النوم تفريط ، وإنما التفريط فى اليقظة » . وقال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ . [البقرة: 286]

فهذا لم يؤخر الصلاة عن وقتها عمداً، فلا يصح إلحاق العاصى المفرط به ، والله أعلم . (انظر مدارج السالكين: 290/1 ، ومجموع الفتاوى: 40/22)

وأما إذا كان الحق يتعلق بالعباد وتعذر على التائب إعادته ، كمن أخذ مالاً - مثلاً - بغير وجه حق ولم يهتد إلى صاحبه بعينه ، أو إلى ورثته فإنه فى هذه الحالة: يتصدق بتلك الأموال عن أربابها ، فإذا كان يوم استيفاء الحقوق ، كان لهم الخيار بين أن يجيزوا ما فعل ، وتكون أجورها لهم ، وبين أن لا يجيزوا ، ويأخذوا من حسناته بقدر أموالهم ، ويكون ثواب تلك الصدقة له ، إذ لا يبطل الله سبحانه ثوابها ، ولا يجمع لأربابها بين العوض والمعوض ، فيغرمه إياها ويجعل أجرها لهم ، وقد

غرم من حسناته بقدرها .

وأما إذا اغتصب الإنسان طيراً كدجاجة أو حمامة مثلاً ، أو حيواناً ، كناقة أو شاة فنتجت أولاداً .. فقيل: أولادها كلها للمالك ، فإن ماتت - أو شيء من النتاج رد أولادها وقيمة الأم وما مات من النتاج .. هذا مذهب الشافعى وأحمد فى المشهور عند أصحابه .

وقال مالك: إذا ماتت فربها "أى صاحبها" بالخيار بين أخذ قيمتها يوم ماتت ، وترك نتاجها للغاصب ، وبين أخذ نتاجها وترك قيمتها ، وعلى القول الثالث الراجح: يكون على قيمتها ، وله نصف النتاج ... والله أعلم .

ثانياً: هجر أهل المعاصى وأماكن المعصية .

قال ابن رجب الحنبلى: العدوى التى تُهلك من قاربها هى المعاصى ، فمن قاربها وخالطها ، وأصر عليها هلك ، وكذلك مخالطة أهل المعاصى ، ومن يحسن المعاصى ويزينها ويدعو إليها من شياطين الإنس ، وهم أضر من شياطين الجن ، قال بعض السلف: شيطان الجن تستعيذ بالله منه فينصرف ، وشيطان الإنس لا يبرح حتى يوقعك فى المعصية . وفى الحديث: ((**يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**)) .

(رواه أبو داود والترمذى والحاكم بسند صحيح)

وفى حديث آخر: «لا تصحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقى» .

(رواه أحمد وأبو داود والترمذى بسند حسن)

وكذلك أماكن المعاصى وعقوباتها يتعين البعد عنها والهرب منها ، خشية نزول العذاب ، كما قال النبى ﷺ لأصحابه لما مر على ديار ثمود بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين ، إلا أن تكونوا باكين خشية أن يصيبكم ما أصابهم» . (متفق عليه)

ولما تاب الذى قتل مائة نفس من بنى إسرائيل ، وسأل العالم: هل له من توبة ؟ قال له: نعم ، فأمره أن ينتقل من قرية السوء إلى القرية الصالحة ، فأدركه الموت بينهما ، فاختصم فيه ملائكة الرحمة ، وملائكة العذاب ، فأوحى الله إليهم ، أن قيسوا بينهما فإلى أيهما كان أقرب فألحقوه بها ، فوجدوه إلى القرية الصالحة أقرب برمية حجر ، فُغفر له)) .

(رواه البخارى)

هجران أماكن المعصية وإخوانها من جملة الهجرة المأمور بها ، فإن المهاجر من هجر ما نهى الله عنه .

قال إبراهيم بن أدهم: "من أراد التوبــة فليخرج من المظالم وليدع مخالطة من كان يخالطه ، وإلا لم ينل ما يريد" .

(لطائف المعارف: 118/1 - 120 باختصار)

أخى - إياك والتسويف فى التوبة !

يا مؤخراً توبته بمطل التسويف ، لأى يوم أجلّت ؟! كل يوم تضع قاعدة الإنابة، ولكن على شفا جرف ، كلما صدقت لك فى التوبــة رغبة حملت عليها جنود الهوى حملة فانهزمت .

قال بعض الصادقين الصالحين وقد سُئل عن توبته قال: فكرت يوماً فى ذنوبى ، وفى تقصيرى ، وفى معادى ، فرأيت عمرى ينقص ، وذنوبى تزيد ، ومعادى يقرب ، ونفسى على التوبــة لا تُقبل ، فرأيتُ بلاء لا تحمله الجبال ، فخرجتُ من بيتى مفكراً فى سوء حالى ، فمررت بطبيب وعليه جمع من الناس يرفعون إليه القوارير ، ويطبلون منه الصفات ، فوقفت معهم وقلت: يا شيخ هل عندك دواء الذنوب ؟ فأطرق ساعة ، ثم رفع رأسه وقال: لو علم العاصى من يعصى لذاب قبل المعصية ... فعدت إلى منزلى وقد أثر كلامه فى قلبى ، فلزمت باب مولاى إلى أن قبلنى .

ليت شعرى أنت يا مسكين متى تعرج على التوبــة ؟ متى يحن قلبك إلى منحنى الأحباب ؟(:"روح الأرواح" ابن الجوزى: ص78)

****

وهذا آخر ما تيسر لى جمعه فى هذا الموضوع .

والله أسأل أن يتوب علينا ، إنه هو التواب الرحيم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

****